الفصل السادس عشر:
الحرب المزعومة

أسمهان شريح

لا عجب في أن رئيس هيئة أركان الفيلق العربي، الإنكليزي غلوب باشا، سمى حرب ١٩٤٨ بـ " الحرف المزيفة ". " إيلان بابيه ".

لقد غدا متاحًا بعض الشيء، الآن تناول مجريات النكبة، بعد المحاولات الجادة التي قام بها مؤرخون أكاديمون فلسطينيون مرموقون لكتابة تاريخ النكبة بهدف مواجهة الرواية الإسرائيلية المضللة، وبعدما أفرج الإسرائيليون، بعد خمسين عامًا على الإعلان عن قيام كيانهم، عن بعض الوثائق التي بحوزتهم والتي تتناول وقائع النكبة ومجرياتها. وقد عزز هذا التوجه، بروز ظاهرة " المؤرخين الجدد " الإسرائيليين الذين بدأوا بالكتابة عن النكبة إستنادًا إلى الوثائق الإسرائيلية المفرج عنها، حيث أخذت روايتهم بمقاربة الرواية الفلسطينية.

أورد المؤرخ الما بعد صهيوني إيلان بابيه هذه المقولة في كتابه " التطهير العرقي في فلسطين "، في إطار إيضاحه أن الحرب التي قامت بها الجيوش العربية في فلسطين عام ١٩٤٨، كانت حربًا مزيفة، وتعزز الرواية الفلسطينية للنكبة ما ذهب إليه بابيه.

فما الذي دعا الفلسطينيين، وبابيه، إلى إطلاق هذا الحكم على الحرب

التي خاضتها الجيوش العربية في فلسطين ردًا على تقسيم فلسطين بين أصحابها الشرعيين والغزاة اليهود القادمين من أوروبا؟ هل هو انعدام إرادة القتال؟ أم عدم توافر الاستعداد للحرب؟ أم عدم التكافؤ بين الطرفين، أو الأطراف التي خاضت الحرب؟ هذا ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنه من خلال سرد أسباب الحرب، والأطراف التي شاركت فيها، وبالتالي رصد مجريات الحرب.

وستعتمد هذه الدراسة التقسيم الزمني والمنهج النقدي التحليلي، والأسلوب العلمي لمعالجة هذا الموضوع.

تمهيد:

وصفت اليهودية حنّة آرندت الاتجاه السائد في الرأي العام اليهودي سنة ١٩٤٨، بالقول: " إن يهود أميركا ويهود فلسطين، متفقون أعمق الاتفاق على المقترحات التالية التي جرى الإعراب عنها بصورة فظة بعض الشيء: لقد أتت اللحظة التي ينبغي لنا أن نربح فيها كل شيء؛ النصر أو الموت؛ إذ أن المطاليب العربية والمطاليب اليهودية لا تقبل التوفيق، فوحده الحل العسكري هو القادر على تسوية القضية. والمسألة واضحة: العرب، كل العرب هم أعداؤنا؛ وليس سوى الليبراليين الذين ولى عصرهم بمؤمنين بميزة التسوية، والجهلة هم وحدهم المؤمنون بالعدالة " [١].

وهذا يؤكد أن حرب ١٩٤٨، لم تكن حربًا خاطفة، بل كانت حربًا

(١) جان إيف أوليه، **لجنة الأمم المتحدة للتوفيق بشأن فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٥١ حدود الرفض العربي**، مؤسسة الدارسات الفلسطينية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١، ص١.

مخطط لها، كما جرى الاستعداد لها بشكل جيد من قبل الغزاة اليهود على الأقل. ففي إطار البحث عن حل لما اعتبرته الحركة الصهيونية " المشكلة العربية " في فلسطين، أي الوجود الفلسطيني، جرى منذ وقت مبكر على نشوء الحركة الصهيونية الإعداد لتفريغ فلسطين من أصحابها الشرعيين، وهم الفلسطينيون. لأن مجرد وجود الفلسطينيين على أرضهم يقوّض الفكرة الصهيونية القائلة بخلو فلسطين من السكان من أساسها. لذلك " وفي الواقع، لم تكن فلسطين في سنة ١٨٨٢، حتى أرضًا " محتلة "، وإنما " أرضًا خالية من البشر ". أما الفلسطينيون، السكان الأصليون الذين كانوا يعيشون هناك، فكانوا في نظرهم، إلى حد كبير، كائنات غير مرئية، أو - إن لم يكونوا كذلك - كانوا جزءًا من عقبات الطبيعة التي يجب التغلب عليها أو إزالتها. لا شيء، لا الصخور ولا الفلسطينيون، كانوا يجب أن يشكلوا عائقًا في الطريق إلى " استرداد " الأرض التي اشتهتها الحركة الصهيونية وطنًا قوميًا لها [١].

بيّن الأستاذ نور الدين مصالحة من خلال كتابه " طرد الفلسطينيين: مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيونيين ١٨٨٢ – ١٩٤٨ " من خلال الوثائق، أن فكرة ترحيل الفلسطينيين عن أرضهم، كانت قد رافقت ظهور المشروع الصهيوني، وإن كانت مناقشتها قد اتخذت في البدايات طابعًا سريًا، إلا أنها، منذ ثلاثينيات القرن العشرين، أخذت طابعها العلني. وكان الحديث يدور عن ترحيل الفلسطينيين بطرق الإغراء وعلى مراحل. وعندما تبين للقيادة الصهيونية أن الفلسطينيين،

(١) إيلان بابيه، **التطهير العرقي في فلسطين**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ٢٠.

ومعظمهم من الفلاحين، متمسكون بأرضهم، بدأ التفكير باقتلاعهم بالقوة. فقد أعلن بيرل كاتسنلسن، وهو أهم زعيم عمالي معارض للتقسيم، في خطاب متشدد في ٢ آب/ أغسطس ١٩٣٧، أثناء النقاشات التي دارت بشأن اقتراح لجنة بيل البريطانية بتقسيم فلسطين: " إن موضوع ترحيل السكان قد أثار النقاش في صفوفنا.. وفي التحليل الأخير، فإن هذا عمل سياسي واستيطاني يخدم مصلحة الطرفين. ولطالما اعتقدت أن هذا أفضل الحلول. وفي أيام الإضطرابات [الثورة الفلسطينية]، ازداد اقتناعي بأن هذا الحل لابد أن يأتي في يوم من الأيام، لكنني ما ظننت أن الترحيل إلى خارج أرض إسرائيل، يعني مجرد الترحيل إلى ضواحي نابلس، كنت ولا أزال أعتقد أن قَدَرَهم الترحيل إلى سوريا أو العراق " [١].

ومنذ سنة ١٩٢٤، بدأ التخطيط للخطة (د)، التي شكلت الأساس للحملة العسكرية التي تعيَّن على الهاغاناه أن تشنها، وقد اعتمدتها قيادة الهاغاناه العليا في ١٠ آذار/ مارس ١٩٤٨.

وبذلك في طرد الفلسطينيين من ديارهم، كان سببًا رئيسيًا من أسباب حرب ١٩٤٨. أي أن هذه الحرب قد خطط لها سلفًا وتم الإعداد لها من قبل القيادة الصهيونية قبل صدور قرار التقسيم، الذي تشير أدبيات النكبة، في الروايتين الفلسطينية والإسرائيلية، أنه كان سبب نشوب الحرب سنة ١٩٤٨، وذلك خلافًا لما حدث في الجانب الآخر.

---

(١) نور الدين مصالحة، **طرد الفلسطينيين مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيونيين ١٨٨٢ - ١٩٤٨**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢، ص ٥٨.

أسباب الحرب واستعدادتها :

ذهب بعض مؤرخي النكبة، مثل د. عبد الله عبد الدائم، إلى أن احتلال فلسطين، بدأ بعدما استقر رأي الحركة الصهيونية على أن تكون فلسطين المكان المنشود لتحقيق الهدف الصهيوني بإنشاء دولة لليهود، حيث بدأت الخطوات التمهيدية بإقناع القوى النافذة في ذلك الحين، بأهمية وصوابية الهدف الصهيوني والفوائد التي يمكن لهذه القوى جنيها جراء تحقيقه، وبالتالي الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية واستعمارها بشتى السبل.

وهكذا، أفضى التقاء المصالح بين القوى الاستعمارية التي كانت تسعى للاستيلاء على تركة السلطة العثمانية، خصوصًا في المشرق العربي، مع المشروع الصهيوني، إلى تعاون وثيق بين هذه القوى وبين الحركة الصهيونية؛ ما يمكن معه تحميل مسؤولية حرب ١٩٤٨، وبالتالي ما نجم عنها من كارثة وقعت على الشعب الفلسطيني، اصطلح على تسميتها بـ " النكبة "، إلى أكثر من طرف حيث ساهمت هذه الأطراف في وقوع الحرب، بل اشتركت فيها.

كانت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والحركة الصهيونية، وهيئة الأمم المتحدة والأنظمة العربية والزعامة الفلسطينية التقليدية مسببًا في حرب ١٩٤٨، وقد تفاعلت هذه المسببات وتداخلت بحيث غدت هذه الحرب أمرًا واقعًا لا محالة.

رغم أن الجنود الفلسطينيين في الجيش التركي أتوا بأعمال باهرة في الحرب العالمية الأولى، كما يورد فوزي القاوقجي، الذي قضى فترة من

حياته مساهمًا في المقاومة الفلسطينية ضد البريطانيين واليهود، حيث شارك في الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ وحرب ١٩٤٨، كما جاء في مذكراته، إلا أنهم انقطعوا عن التدريب العسكري منذ ذلك الوقت، ولم يتح لهم تأليف جيش، كما أن عدد ضباطهم كان قليلاً جدًا، بخلاف سوريا والعراق، الأمر الذي أثار شكوك القاوقجي [١] . أما تفسير ما أثار شكوك القاوقجي، فيتلخص بأن البريطانيين الذين تعهدوا تنفيذ المشروع الصهيوني، كانوا قد دخلوا فلسطين منذ سنة ١٩١٨، أي قبل انتدابهم من قبل عصبة الأمم عليها، وبالتالي، فإنهم منعوا الفلسطينيين من تكوين أي شكل من أشكال العسكرة أو التسلح أو المقاومة؛ كما أن الفلسطينيين، في ذلك الوقت، لم ينظروا إلى فلسطين باعتبارها كيانًا مستقلاً عن سوريا، ما يؤكده د. عبد الوهاب الكيالي في كتابه " تاريخ فلسطين الحديث "، عند الحديث على ردة الفعل الفلسطينية على مقررات مؤتمر السلم في باريس، الذي أبرز مطامع بريطانيا وفرنسا في السيطرة على المشرق العربي؛ فيذكر أن الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس ارتأت، قبل وصول لجنة كنغ – كرين بأسبوع، إصدار منشور يتضمن وجهات نظرها التي تعتزم عرضها على اللجنة. وأكد المنشور أن فلسطين – سوريا الجنوبية – هي جزء لا يتجزأ من سوريا [٢]. والأمر نفسه أكده الوفد الفلسطيني إلى المؤتمر السوري الأول (تموز، يوليو ١٩١٩) في البند الثامن من

(١) خيرية قاسمية: إعداد وتقديم، **مذكرات فوزي القاوقجي**، دار النمير، دمشق الطبعة الثانية، ١٩٩٥، ص ١٨٤.

(٢) د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة السابعة ١٩٧٩، ص ١٣٨.

برنامج دمشق، الذي نص على: " إننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريا المعروف بفلسطين والمنطقة الساحلية التي من جملتها لبنان، عن القطر السوري، ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان [١].

ولما تضمن البند الثاني من صك الانتداب البريطاني على فلسطين تنفيذ وعد بلفور، فإن سلطات الانتداب، أخذت على عاتقها تهيئة البنية التحتية لإنشاء الدولة اليهودية. فـ " منذ البداية، سمحت السلطات الانتدابية البريطانية للحركة الصهيونية بإنشاء كيان مستقل لها في فلسطين ليكون بمثابة بنية تحتية للدولة العتيدة " [٢]. وهو أمر أقره المؤرخون الجدد الإسرائيليون. هذا في الوقت الذي كانت فيه قوات الانتداب تضيق على الفلسطينيين، وتطبق نظامًا عرفيًا جائرًا بحقهم، فتمنعهم من اقتناء السلاح، وتواجه مقاومتهم لها بقسوة بالغة. كما كانت تقف إلى جانب المهاجرين اليهود أثناء المواجهات بينهم وبين الفلسطينيين، بل إن ضابطًا بريطانيين ساعدوا المهاجرين اليهود في إنشاء منظمة عسكرية فعالة، وهي منظمة الهاغاناه، أثناء " التحضيرات الصهيونية للتمكن من الاستيلاء على البلد بالقوة " [٣].

وكان الضابط البريطاني أورد تشارلز وينغيت قد جعل القادة الصهيونيين يدركون، بصورة أفضل، أن فكرة إقامة دولة يهودية يجب

(١) **المصدر نفسه**، ص ١٣٩.
(٢) بابيه، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.
(٣) **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.

أن تقترن بشكل وثيق بتحضيرات عسكرية، وإنشاء جيش، لأن الأعمال المسلحة الهجومية من شأنها أن تشكل رادعًا فعالاً ضد المقاومة المحتملة للفلسطينيين، ومن هنا إلى التفكير في طرد جميع السكان الأصليين بالقوة، بات الطريق، كما برهنت التطورات اللاحقة، قصيرة جدًا [١].

تنبه الفلسطينيون إلى الدور الذي تلعبه قوات الانتداب في تنفيذ وعد بلفور، من خلال فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية، والتسهيلات التي تقدمها للمهاجرين اليهود. فيذكر المؤرخ الفلسطيني محمد عزة دروزة:

" إن الإنكليز أخذوا في تنفيذ المنهج اليهودي بكل حماس وقوة منذ البدء. فقد فتحوا أبواب فلسطين للهجرة اليهودية.. واستقبلوا وايزمن وزعماء اليهود الآخرين بالحفاوة، وسمحوا لهم بإعلان آمالهم وأهدافهم منذ وقت مبكر، ثم عينوا في سنة ١٩٢٠ هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني مندوبًا ساميًا، كبرهان على أنهم متفقون مع اليهود على دمغ الفلسطينيين بدمغة الحكم اليهودي منذ أول الحكم المدني، حيث صرّح بهذا أمام كبار موظفي الحكومة من الإنكليز قائلاً: " إن سياسة حكومة جلالة الملك التي جاء لتطبيقها هي تشجيع اليهود إلى أن تصبح السيطرة لهم على البلاد ويمكن إنشاء حكومة يهودية " [٢].

ويوضح القاوقجي في مذكراته أن الصهيونية كانت تستخدم جيش

(١) **المصدر نفسه** والصفحة نفسها.

(٢) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، الجزء الأول، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٤٨، ص ٣١.

بريطانيا في فلسطين، ورجالات الإدارة فيها " تسمح بجلب المهاجرين من اليهود بصورة شرعية وغير شرعية، أضعاف ما هو مقرر، ويستوردون الأسلحة سرًا وعلانية " [1].

وفي هذا تدليل على النية المبيتة للحرب على الفلسطينيين من قبل المهاجرين اليهود، وعلى موافقة قوات الانتداب البريطاني.

أتاحت ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ الفرصة لأعضاء الهاغاناه كي يطبقوا، في المناطق الريفية الفلسطينية، التكتيكات التي تعلموها من ويغنت، والتي اتخذت على الأغلب شكل عمليات انتقامية ضد أهداف محدّدة، كالقناصة الكامنين بجانب الطرقات. وكما يبدو، كان الهدف من وراء هذه العمليات زرع الخوف في قلوب الفلسطينيين القاطنين قرب المستعمرات اليهودية.

وقد نجح ويغنت في ربط الهاغاناه بالقوات البريطانية خلال الثورة الفلسطينية، كي تتعلم بصورة أفضل، " ماذا يجب أن تتضمن مهمة تأديبية " ضد قرية فلسطينية.

ويتذكر أماتسيا كوهين، الذي شارك في أول عملية من هذا النوع عام ١٩٨٣، عندما هاجمت وحدة تابعة للهاغاناه وسرية بريطانية معًا قرية على الحدود بين فلسطين ولبنان، الرقيب البريطاني الذي شرح لهم كيف يستخدمون حربة البندقية عندما يهاجمون القرويين الفلسطينيين العزّل. " ولو كان هذا الرقيب موجودًا في فلسطين سنة ١٩٤٨ لكان شعر بالفخر لدى رؤية السرعة التي أتقنت فيها القوات اليهودية فن مهاجمة القرى "

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣.

.(١)

أما الدور المباشر الذي لعبته بريطانيا، والذي أدى إلى نشوب الحرب فكان إعلانها الجلاء عن فلسطين في آب / أغسطس من عام ١٩٤٨، وانسحابها الفعلي منها قبل هذا التاريخ (١٥ أيار / مايو ١٩٤٨)، دون أن تقدم أي حل للمشكلة التي بلغت ذروة تأزمها. بل ساعدت اليهود بتسليمهم المعسكرات والتحصينات والمطارات ومستودعات الذخيرة، مقابل وقوفها ضد استعدادات الفلسطينيين العسكرية، ومقاومتها إدخال الأسلحة والمتطوعين الشعبيين من الأقطار المجاورة إلى مناطق تواجدهم. كما غض الجيش البريطاني الطرف عن المجازر والفظائع التي ارتكبها اليهود بحق الفلسطينيين، بل سهلوا لهم مهماتهم.

وتجلى الدور الأميركي في اندلاع الحرب في موقفين: تمثل الأول في نسف الكتاب الأبيض الذي طالب بتحديد هجرة اليهود إلى فلسطين؛ فيما تمثل الموقف الثاني في الجهد الذي بذلته الولايات المتحدة لإقرار التقسيم.

فيما شكل انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين فرصة لإطلاق يد العصابات الصهيونية لتحقيق حلمها وتنفيذ مخططها القاضي بتفريغ فلسطين من أصحابها الشرعيين بالقوة؛ مستخدمة أبشع الأساليب دموية وعنفًا لتحقيق غايتها، فاعتمدت الإرهاب المسلح نهجًا في تطهير فلسطين عرقيًا.

(١) بابيه، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

ساهمت منظمة الأمم المتحدة في الحرب بإقرارها قرار التقسيم أولاً، ثم بعدم إشرافها على تطبيقه ثانيًا، وبحياديتها إزاء الإرهاب اليهودي بحق الفلسطينيين ثالثًا.

وكان للجانب الرسمي العربي دوره السلبي الذي تسبب في الحرب: ففي حيت قدرت اللجنة العسكرية لمجلس الجامعة العربية القوات اليهودية بستين ألف شخص مدرَّب ومسلَّح بأحدث الأسلحة، ورغم معرفة مجلس الجامعة بحقيقة قوات جيش " الهاغاناه " و " البالماخ "، وعصابة " شتيرن "، وبوليس المستعمرات، وقوى سكان المدن والمستعمرات، فقد اتخذ قرارات هزيلة للتصدي للخطر المحدق بفلسطين، حين قرر تقديم عشرة آلاف بندقية إلى أهل فلسطين، وثلاثة آلاف متطوع. ومع ذلك تمكنت هذه القوة الهزيلة، بالتعاون مع الفلسطينيين، من تسجيل بطولات كبيرة، أجبرت اليهود على التقهقر، ما اضطر مجلس الأمن، إزاء تدهور أوضاع اليهود، إلى إهمال قرار التقسيم [1].

ويرى د. عبد الله عبد الدائم، أن قرار الجامعة العربية بدخول الحرب إنما حدث، ظاهريًا، بفعل نقمة الجماهير العربية إزاء صمتها وجمودها، واكتفائها بالتصريحات والاجتماعات؛ لكن الأحداث والوثائق كشفت بعد ذلك عن أن هذا القرار لم يتم فعلاً إلا بعد موافقة بريطانيا عليه، وبعد أن قيّدت بشرط أفقده معناه، وهو أن يقتصر هدف هذه الجيوش العربية على حماية الأراضي التي خص قرار التقسيم العرب بها، وألا تغزو هذه

(١) د. عبد الله عبد الدائم، **نكبة فلسطين**، دار الطليعة، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٦٦ - ٦٧.

الجيوش بحالٍ من الأحوال الأراضي التي هي من نصيب اليهود، وقد عبرت عن ذلك بوضوح المفاوضات التي جرت بين المستر بيفن وزير الخارجية البريطاني، وبين وفيق أبو الهدى، رئيس الوزارة الأردنية، في ربيع عام ١٩٤٨ (١).

وعن استعدادات الجانب العربي بما فيه الفلسطيني، يذكر القاوقجي: أنه عرف، أثناء زيارته للبنان عشية حرب ١٩٤٨، (آذار / مارس ١٩٤٧)، أن التسليح الشعبي غير قليل، وأنه تأكد أن هناك إمكانيات واسعة لتشكيلات مسلحة قوية، يمكن الاستفادة منها إلى حد بعيد، في معركة فلسطين التي كان يحس أنها تقترب منه بسرعة فائقة. فكتب إلى الحاج أمين الحسيني في مصر، شارحًا له الحالة بوضوح، كما خبرها، ومبينًا له قيمة الاستفادة من الإمكانيات الشعبية، إذا عُمل على تنظيمها، ووضع نفسه تحت تصرفه من أجل فلسطين. وسلم الكتاب إلى السيد عز الدين الشوا، الذي سلمه إلى سماحة المفتي، لكن القاوقجي لم يتلقَّ جوابًا، وقد عُلم فيما بعد، أن المفتي كان يعتمد على تشكيلات شعبية فلسطينية باسم " الخلايا " منتشرة في أنحاء فلسطين كلها، وهي من القوة بحيث تستطيع أن تحل قضية فلسطين، وأن كل ما يطلبه من الدول العربية، هو أن تموّنه بالمال والسلاح والعتاد. ويضيف القاوقجي، أنه كان يخالف سماحة المفتي في رأيه واعتقاده، رغم عدم توافر معلومات موثوقة تمكنه من إثبات خطأ رأي المفتي، ويتابع القاوقجي أنه كان يدرك نية اليهود

(١) شفيق رشيدات، **فلسطين: تاريخًا وعبرة ومصيرًا**، بيروت، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، ١٩٦١، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

وتصميمهم على إقامة دولة يهودية بالقوة في فلسطين، حيث ستكون محاطة بدول وشعوب رافضة وممانعة لوجودها؛ واليهود على ما هم عليه في أمريكا وأوروبا " علمًا، وفكرًا ونفوذًا وغنى وحيلة ومثابرة، لا يمكن إلا أن يكونوا هيأوا لإنشاء دولتهم، ما تقتضيه مغامرة كهذه، من أسلحة وعتاد وأموال وقوى مدرّبة وتحصينات واتفاقات مع بعض دول غربية لهذا الغرض، مما لا ينفع معه إلا ما يماثله، أو ما يقرب منه على الأقل " (١).

وكانت الإعتداءات اليهودية، خصوصًا على الجيش البريطاني، في فلسطين، تدل دلالة واضحة على مقدار تنظيمهم، وتسلحهم، ومدى استعدادهم العسكري وكثرة ما يملكون من مواد متفجرة وأسلحة أوتوماتيكية، بحيث بدا الجيش البريطاني حيال هذه الإعتداءات ضعيفًا ومترددًا. وهو أمر، كما يقول القاوقجي، كان يجب أن " يحملنا على أن نحسب لهم حسابًا.. على أنني وإن كنت حتى ذلك الحين، غير مطلع اطلاعًا حقيقيًا على مبلغ ما في فلسطين من استعداد، لدى العرب، من ناحية التنظيم والتشكيلات والتسلح، فقد كنت أميل إلى الاعتقاد بأن الحالة حسنة من هذه الناحية، كلما تذكرت ما قاله لي سماحة المفتي " (٢).

ويتضح من خلال سرد القاوقجي لمجريات ووقائع عشية حرب ١٩٤٨، أنه كان مطمئنًا إلى أقوال المفتي؛ وأنه إذا حدث ما من شأنه أن يصدع هذه الاطمئنان، فإنه كان يبادر إلى تذكر ما كان يتمتع به المفتي

(١) قاسمية **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١٨ - ٣١٩.
(٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٠.

من نفوذ وسلطان في ألمانيا وإيطاليا، ما كان يحمل على الاعتقاد أن الأوساط الألمانية والإيطالية، وهي تسعى للتقرب من العالم العربي والإسلامي، فإنها لابد أن تزوده بالأموال التي يحتاجها، إضافة إلى ما كان يرد إلى سماحته من الخارج [١].

إن ما يقدمه القاوقجي من معلومات، يستدعي الكثير من التأمل والتدقيق، بل والبحث والتركيز؛ أولاً: لجهة الدعم الألماني والإيطالي للمفتي؛ فمع الأخذ بالاعتبار ما تبيّن من التعاون بين النازية والصهيونية، يمكن اعتبار أن المفتي وقع ضحية مكيدة. وهو ما يمكن الاستدلال عليه من خلال ما أورده غِرهَرد هُب في كتابه " العرب في المحرقة النازية ضحايا منسيون !؟ " حيث يرى أن التكهنات المتعلقة بحقيقة زيارة المفتي أثناء إقامته في ألمانيا لمعسكرات الاعتقال النازية، أمر متنازع عليه، وبإساءات أخرى صادرة من المفتي، تبدو بالنظر إلى تعاونه الثابت الذي لا يشك فيه، مع النازيين، فائضة عن الحاجة على نحو كامل في الحقيقة، إلا إذا كانت تتابع الهدف المتمثل في إضفاء صفة الشيطان على أمين الحسيني، واتخاذه، على هذا النحو، في حلبة الصراع الدائر في تلك الأيام حول فلسطين، أداة سياسية، في صورة " هراوة عَقدِية " [٢].

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية التي أثارها القاوقجي عن المعونات التي كانت تتدفق على المفتي من الخارج، ففيها غمز من قناة المفتي، إن لم

(١) **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.

(٢) غرهرد هب، **العرب في المحرقة النازية ضحايا منسيون!**، ترجمة محمد جديد، دار قدمس، دمشق الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ١٧.

تكن اتهامًا صريحًا، خاصة أن القاوقجي يعلن، عند التقديم لمذكراته، أنه يرغب في إظهار الكثير من الحقائق التي لم تكن معروفة حول ما حدث في حرب ١٩٤٨. وليس ثمة ما يجلو هذه الحقيقية في المتوفر من المصادر التي تناولت النكبة، رغم أن مصادر التاريخ الشفوي أشارت بإصبع الاتهام مباشرة للزعامات التقليدية الفلسطينية، والأنظمة العربية، متهمة إياها بالتقاعس ومحملة مسؤولية النكبة لها.

على أية حال فإن ثلاثة ممن عايشوا النكبة وأرّخوا لها وهم: الفلسطيني محمد عِزة دروزة، واللبناني فوزي القاوقجي، والإسرائيلي إيلان بابيه، يلتقون حول نقطة واحدة، مفادها أن الاستعدادات العربية لمواجهة الهدف الصهيوني المدعوم من الغرب، والمتمثل بإقامة دولة لليهود على حساب الحقوق الوطنية الفلسطينية، تركزت على الاستعدادات اللفظية؛ ففي حين كتب دروزة حول أثر عدم جدّ العرب وتبعته قائلاً: أن العرب كانوا ينذرون بمقاومتهم للتقسيم بالقوة ويقولون أنه سيثير اضطرابات دموية في فلسطين والشرق الأدنى. وعلى صواب الإنذار وتحققه بعد التقسيم، وعلى أن له طابع المؤثر الأقوى في الموقف، فقد كان استعداد العرب لتحقيقه ضعيفًا بطيئًا مرتجلاً، بالرغم مما كان يجيش في نفوسهم من حماس وغيرة ورغبة صادقة، وبالرغم من أن النضال المسلح كان المصير المحتوم والمتوقع منذ اجتماع مجلس الجامعة في بلودان في حزيران / يونيو ١٩٤٦ على الأقل. فلم يكن في فلسطين، إلى يوم قرار التقسيم، من وسائل النضال والمقاومة، ما يمكن أن يوجد في

ذهن الملاحظين احتمالاً بقدرة الفلسطينيين وحدهم عليهما [١].

ذكر القاوقجي أن: حمى المؤتمرات والاجتماعات أخذت تسري بشكل غريب، حتى كاد لا يسلم منها رأس سياسي ولا عسكري، وأخذ نشاط الرسل والوفود بين الأقطار العربية يشتد، حتى ليخيل إلي المرء أن عواصم البلدان العربية كلها، غارقة في مؤتمر واحد لا ينقطع. واسم فلسطين على كل لسان، والحرب مع اليهود حديث كل فرد كأنما الأقطار العربية في حالة " نفير عام ". لقد كانت حماسة حقيقية فعلاً، لا يعوزها إلا أن يستغلها استغلالاً شريفًا منظمًا لمصلحة الصفوف ويضعوا الخطط ويعدوا العدة لقتال عملي جدي، وإنها لجولة أو جولات حربية قليلة، بعد ذلك، مع اليهود في فلسطين، ويحل العرب قضية فلسطين، ويضعون العالم أمام الأمر الواقع [٢].

ولا يخفي القاوقجي ارتيابه من عدم جدية الاستعدادات للحرب، من قبل الأنظمة العربية، رغم أن ما كان يظهر عليهم يبدي خلاف ذلك. ويذكر القاوقجي أنه في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ عقد في قصر الجمهورية في دمشق وبحضور فخامة الرئيس الأول شكري القوتلي اجتماعًا من أجل فلسطين، حضره رئيس الحكومة السيد جميل مردم والعميد طه الهاشمي، ومن الفلسطينيين السيدان معين الماضي وعزة دروزة. وقد لمس القاوقجي في حديث هؤلاء السادة، ما يدل على أنهم ينحون نحوًا، يختلف اختلافًا تامًا، عما كان قائمًا في ذهنه بشأن فلسطين،

(١) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٧.
(٢) قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢١.

نحوًا لعله يبدو لأول وهلة بمظهره المنطقي الخارجي، أنه لا غبار عليه، وهو يتلخص بما في هذه العبارة من دلالات.. " إن قضية فلسطين لا تحل إلا بالقتال، تقوم به الجيوش العربية النظامية، ولكن يجب أن يسبق القتال نشاط سياسي قوي شامل في دوائر هيئة الأمم المتحدة، ولدى دولها كلها، فلعل هذه الدول تتهيب الموقف وتبادر إلى حل القضية بطرق سلمية، فإن هي لم تفعل، فإننا نقذف إلى الميدان بجيوشنا النظامية ونحطم اليهود " (١).

وقد أدرك القاوقجي بحسه العسكري أن " وراء هذه الأقوال أمرًا، وكأنما يقولونها وكل واحد منهم يعتقد – دون أن يفضي إلى الآخر – أن بريطانيا وأمريكا ستحولان حتمًا دون وقوع حرب في فلسطين... وبالنتيجة، فإنهم لن يحاربوا " (٢).

ويؤكد بابيه ما توصل إليه القاوقجي من عدم نية الأنظمة الرسمية خوض الحرب، فيذكر أن التغيير الوحيد، الذي يمكن ملاحظته، في السلوك العربي العام فور انتهاء الإنتداب كان في الخطاب البلاغي. " طبول الحرب أصبح ضجيجها أعلى وأكثر صخبًا من ذي قبل، لكنها فشلت في تغطية التقاعس والارتباك والفوضي التي كانت سائدة. قد يكون الوضع اختلف من عاصمة إلى أخرى، لكن الصورة العامة كانت واحدة " (٣).

(١) **المصدر نفسه**، ٣٢٢.
(٢) **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.
(٣) بابيه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٠.

وهكذا، لم تتوفر للفلسطينيين، فرصة الدفاع عن وطنهم في وجه المخطط الصهيوني الذي قضى بالاستيلاء على أراضيهم وترحيلهم بعيدًا عنها. وقد كان تقاعس الأنظمة الرسمية العربية من أبرز مسببات النكبة، لأنها لم تخض حربًا فعلية في فلسطين لإنقاذها من المصير الذي كان يتهددها. ما دفع شهود هذه الحرب إلى اعتبارها حربًا مزيفة.

الحرب المزيفة:

من المفارقات المثير للتأمل والجديرة بالبحث، أن بريطانيا، التي رأت في زرع كيان، في الزاوية الواصلة بين المشرق العربي ومغربه، معادٍ لسكان المنطقة وصديقًا لها، هو الحل الأمثل للسيطرة على هذا الجزء من العالم المتمتع بالثروات الهائلة، الذي يمتلك من أسباب الوحدة والقوة ما يؤهله لأن يكون قوة عظمى منافسة لها، وبالتالي مجابهة إمكانية توحد العالم العربي، هي التي أيدت قيام شكل من أشكال الاتحاد بين أقطار العالم العربي، والغريب في الأمر أن هذا التوجه البريطاني انطلى على بعض زعماء العالم العربي. فكتب نجيب صدقة عام ١٩٤٦: " وبعد دخول البريطانيين إلى سوريا ولبنا وتقلّص النفوذ الفرنسي، ظهرت في جميع البلدان العربية نزعة إلى التفاهم والتضامن ترتكز على ما بين هذه البلدان من صلات وثيقة ومصالح مشتركة، ويشجعها ما بدا من الحكومة البريطانية من العطف عليها " [١].

ويؤيد صدقة ما ذهب إليه بالاستشهاد بتصريح للمستر إيدن وزير الخارجية البريطانية في ٢٩ آذار / مارس ١٩٤١: " إن كثيرين من

(١) نجيب صدقة، **قضية فلسطين**، دار الكتاب، بيروت ١٩٤٦، ص ٢٦٧ - ٢٧١.

مفكري العرب يرغبون في أن تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة أكبر من النصيب الذي تتمتع به الآن... وستعاضد حكومة جلالته معاضدة تامة أي مشروع ينال الموافقة العامة ".

ويتابع صدقة، أن النحاس باشا (رئيس الحكومة المصرية في حينه) بادر إلى إجابة هذه الدعوة الصريحة، التي أفضت إلى عقد مؤتمر في الإسكندرية عام ١٩٤٤، حضره إلى جانب مصر، مندوبو كل من اليمن والمملكة السعودية وسوريا ولبنان وشرقي الأردن والعراق، ووضعت فيه مقررات أشهرها " البروتوكول " الذي يسجل اتفاق الدول العربية على مبدأ التعاون والتضامن والإنضمام إلى هيئة تدعى " جامعة الدول العربية ". وقد مُثِّلت فلسطين في مؤتمر الإسكندرية بالسيد موسى العلمي، الذي عرض قضية فلسطين على المؤتمرين، ودعاهم إلى المساهمة في إنقاذ أراضيها وخدمة قضيتها العامة. فأسفر المؤتمر عن قرار يطالب بتنفيذ الكتاب الأبيض ويرجئ بحث قضية الأراضي إلى موعد آخر. والجدير ذكره، في هذا الصدد، أن ميثاق الجامعة العربية خص فلسطين بملحق خاص أقر بموجبه: أنه نظرًا لظروف فلسطين الخاصة، يتولى مجلس الجامعة اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله [١].

أخذ صدقة على الجامعة العربية لإحالتها قضية الأراضي إلى اللجنة الاقتصادية، التي لم تسفر المناقشات الطويلة التي أجرتها حول هذه القضية عن شيء، معتبرًا أن " ليس هذا البطء المؤسف هو المظهر

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الوحيد لتهامل الجامعة العربية في قضية فلسطين بل إن هناك دلائل أخرى أشد خطورة على هذا التهامل " [١].

وفي هذا دليل على أن الجامعة العربية لم تكن جدية في التصدي لنكبة فلسطين. ويبدو أن الحاج أمين الحسيني كان مدركًا لهذا الأمر، لذلك فقد عارض خطط الجامعة العربية في الحرب، ويظهر هذا واضحًا في مذكرات القاوقجي حيث يقول: " كان سماحة المفتي في خلال هذه المدة [تجهيز الجيوش العربية النظامية خريف ١٩٤٧]، يعلن أمام الرجال الرسميين أنه لا يقبل أن أتسلم قيادة جيش المتطوعين، وكان هؤلاء الرجال، وغيرهم من الرجالات غير الرسميين، يحاولون إقناعه بضرورة تسلمي القيادة من أجل فلسطين، فيصرّ على الرفض.. فصارحوه بأن الأفضل والأليق أن يعلن قبوله، من أن يفرض عليه الأمر فرضًا [٢].

ويورد نجيب صدقة في كتابه عن قضية فلسطين، أن إنكلترة، أوفدت الكولونيل نيو كومب إلى بغداد عام ١٩٤٠ فعقد مشروع اتفاق بين السيدين جمال الحسيني وموسى العلمي لتقريب أجل الإستقلال وتقصير فترة الإنتقال التي حددها الكتاب الأبيض بعشر سنوات [٣] .

وربما يفسر هذا الاتفاق تقاعس هذه الزعامات عن الاستعداد للحرب.

ويذكر القاوقجي أن رئيس الحكومة المصرية السيد فهمي النقراشي

(١) **المصدر نفسه**، ص ٢٧١.
(٢) قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢٨.
(٣) صدقة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٦.

باشا، أطلق تصريحًا في أحد اجتماعات مجلس الجامعة العربية في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٧، جاء فيه، " إن مصر لن تشترك في (مظاهرة عسكرية) مع الدول العربية من أجل فلسطين، ويجب أن تعلم هذه الدول مقدمًا، أن الجيش المصري لن يشترك في القتال، وذلك لأسباب مصرية داخلية بحتة، فلتعمل الجيوش العربية حسابها على هذا الأساس ". ويعلق القاوقجي قائلاً: هكذا كان موقف الدول العربية وهي تستعد لإنقاذ فلسطين، وهذا ما كان يشغلها في الدرجة الأولى، وبعد هذا بمراحل بعيدة جدًا، تأتي قضية فلسطين [١].

وبذلك فإن مصر ترغب في خوض حرب من أجل فلسطين، ويبدو أنها كانت على دراية بعدم جدية الآخرين في الحرب، ما دفع رئيس حكومتها إلى اعتبارها مظاهرة عسكرية. ولذلك، فإنه عندما قررت مصر، في اللحظة الأخيرة فقط، وقبل يومين من انتهاء الانتداب، المشاركة فيما اعتبرته مظاهرة عسكرية فإنها أرسلت قوة تكونت من ١٠.٠٠٠ جندي؛ واشتملت هذه القوة، التي أفرزتها الحكومة أداء المهمة، على فرقة كبيرة، بلغ نحو ٥٠ % من عددها من الإخوان المسلمين المتطوعين الذين كانوا معتقلين، وقد أفرج عنهم في أيار / ١٩٤٨ كي ينضموا إلى الحملة العسكرية المصرية، غير أنهم لم يكونوا مدربين على القتال [٢].

(١) قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.
(٢) بابيه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٠.

حالة الجيوش العربية عشية النكبة يشرحها القاوقجي [١] فيذكر أنه: تسلم قيادة جيش الإنقاذ رسميًا يوم ٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧، وبدأ بتشكيل هيئة القيادة والمقر، وقد كان مراقبًا بدقة من قبل المفتش العام لجيش الإنقاذ العميد طه الهاشمي، بسبب شكوك القيادة السورية من إمكانية تعاون القاوقجي مع الملك عبد الله، أو إعلانه إدارة مستقلة في فلسطين تقود إلى انقلاب في سوريا، وكان اللواء إسماعيل صفوة ينقل للقاوقجي خبر هذه المخاوف، قائلاً أنه كان يحاول أن يمحوها من نفوسهم، بقوله لهم، مادام المال والعتاد في أيدينا، فلا مجال للتخوف، لأننا قادرون في كل وقت، أن نقضي على كل حركة قد يخطر له القيام بها. وكأنه يريد إفهام القاوقجي، بأنهم قادرون في كل وقت أن يقضوا على كل حركة قد يخطر له القيام بها. وبالفعل فقد طبق هذا التهديد تدريجيًا، حتى جاء وقت لم يكن فيه لجيش الإنقاذ، من العتاد ما يكفيه للدفاع عن نفسه، إذا هو هوجم. وفوق ذلك فقد نشطت القيادات المحلية في فلسطين، المرتبطة رأسًا بسماحة المفتي، إلى العمل لعرقلة حركات جيش الإنقاذ، وبذر بذور التفرقة بينه وبين الفلسطينيين. بالإضافة إلى أن جيش الإنقاذ، كما يقول القاوقجي، كان يجهل تمامًا وضع اليهود، من حيث عدد المقاتلين، ومقدار أسلحتهم، ومدى استعدادهم، وكانت المعلومات التي تردهم حول هذا الموضوع من مصادر متعددة متناقضة: فتارة تصل المبالغة في وصف قوة اليهود إلى حد يدخل الذعر في النفوس، وتارة كانت الأخبار تصورهم من الضعف بحيث يخيل للسامع أن العرب

(١) اعتمدت إساسًا، على: قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣٤ - ٣٣٩.

سيصلون في سباق إلى تل أبيب وبدون توقف.

وقد حاول القاوقجي الحصول على معلومات يمكن الركون إلى صحتها عقليًا، فاجتمعت لديه المعلومات التالية:

أولاً: - جيش الهاغاناه – قيادته الدائمة – عدد الضباط ٥٠٠.

ثانيًا: جنود الهاغاناه – عددهم ستون ألفًا، مقسمون كما يلي:

أ- خمسة عشر ألفًا تحت السلاح.

ب- خمسة وعشرون ألفًا مدربون، احتياط.

ج- عشرون ألفًا مسلحون، يستطيعون الاشتراك في القتال حين الطلب.

ثالثًا: قوى بوليس نظامية وإضافية خمسة آلاف (الإيرغون، وشتيرن عشرة آلاف).

السلاح:

١- كان لديهم مائة وخمسون مدفع هاون.

٢- مائة سيارة مصفحة تصفيحًا محليًا.

٣- دبابات إنكليزية وألمانية من بقايا العلمين وطبرق (لم يعرف عددها).

٤- متفجرات، حوالي خمسين طنًا.

٥- عتاد يكفي لخمسة أشهر قتال.

وفيما كانت لدى اليهود خطة محكمة للحرب، فإن المفتي أفسد الخطة التي وضعها جيش الإنقاذ، واستطاع تحويل كميات من مخصصات جيش الإنقاذ إلى ناحيته ليوزعها على جماعات معينة مرتبطة به.

وعند الخطوة العملية الأولى فوجئ القاوقجي، كما يقول، بتصريحات جديدة، على جانب كبير من الخطورة، وهي أن الجيش السوري نفسه غير مستعد للقتال، وأنه ينقصه السلاح والعتاد... وأن معارك أسبوعين أو ثلاثة تكفي لتستنفذ منه آخر طلقة... وبمثل هذا أخذ المقربون من الحكومات العربية يهمسون عن جيوشها.

لقد أبدى القاوقجي خيبة أمله بسبب التصريحات الطنانة للزعامات العربية، التي كانت بهدف التضليل والتحذير والتجهيل ليس إلاّ، وكان العميدان طه الهاشمي ومحمود الهندي اللذين آلت لهما قيادة جيش الإنقاذ، بسبب انشغال القائد العام اللواء إسماعيل صفوة، يرفضون طلبات الكثير من المتطوعين الذين يأتون عن طريق القاوقجي.

كما يذكر القاوقجي، في تلميح يغني عن التصريح، محاولة كل من الهاشمي والهندي لتحميله مسؤولية أي تقصير في المعركة، حيث كانا يفرضان عليه الضباط والجنود الذين يختارونهما، ويقومان بتدريبهم وإعدادهم على طريقتهما، بحيث لا يتم الإتصال بينهم وبين القاوقجي إلا في ساعة المعركة، حيث لا يكون سواه مسؤولاً عنهم وعن حركاتهم وتصرفاتهم في ساحة القتال.

ويصف القاوقجي العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الإنقاذ

بأنه ضابط ركن جيد، ولكنه ليس قائدًا. ومن هنا، كما يرى القاوقجي، جاءت النظرية التي شكّلت سببًا من أسباب تأخر النجدة عن فلسطين، فقد كان المفتش العام يحب أن يسير في تدريب المتطوعين على أسلوب يتفق مع أسلوب تدريب الجنون، الذين جندتهم الخدمة الإجبارية. في حين أن دقة الظرف وخطورته في فلسطين تتطلب اختصار الوقت، والإسراع في النجدة، والاعتماد في إتمام النقص الذي قد يبقى في بعض فروع تدريب المتطوع، على شخصية القائد وعلاقة جنوده به، من جهة، وطبيعة المعارك التي سيخوضونها من جهة أخرى.

وكان سماحة المفتي ماضيًا من بعيد في تأليف جماعات مسلحة في فلسطين كيفما اتفق، يسمي لهم قادة، أفرادًا قد يكونون شجعانًا ولكنهم جهلاء، يحتفظ بهم للمستقبل. وأخذت ترد على المتطوعين الفلسطينيين في معسكر قطنا (جنوب سوريا)، رسائل باسم الهيئة العليا تطلب منهم الفرار بأسلحتهم من المعسكر والالتحاق بهذه المجموعات التي تنتمي إلى سماحة المفتي، وقد عمل بهذه " النصيحة " كثير من هؤلاء المتطوعين المساكين.

* * *